الدكتور يعقوب صروف

والدين

للمرحوم الدكتور يعقوب صروف فلسفة خاصة فى الحياة ليست باللاأدرية ولا بالشكوكية وانما مزيج من الاثنين مع ناحية من نواحى فلسفة التفاؤل تظهر بوضوح فى مقالاته العديدة عن سر الوجود ، فهو يشك بما قيل ولكنه لا يتشاءم بشك ويذهب من هذا الى اللاادرية التى يطمئن اليها فكره بشكل يختلف عما تعود الناس أن يعنوا بها ، ولعل العلوم الواسعة التى كان يعرفها مع النشأة الدينية التى نشأها هى السبب الوحيد فى نزوعه الى هذه الناحية وقد تكون حريته فى التفكير جارت ميوله الأدبية التى تأسست على مبادىء البروتستانتية فمنعته من التطرف فى الشك واللاادرية وجعلته يعتقد الصلاح فى كل شىء — انما ضمن حدود المعرفة والادراك — وربما كان هذا سبب مناداته بالتطور مع احتفاظه بمبدئه الدينى لانه كان يترجم المواعظ الدينية كقس برع فى اللاهوت ويكتب — بذات الوقت — المقالات الرنانة فى النشوء والارتقاء مستعملا فى الناحية الاولى عاطفته وميوله وفى الناحية الثانية عقله واختباراته ، جامعاً بين النقيضين ومرضيا الفريقين .

عندما أفكر فى الدكتور صروف ترتسم على مخيلتى صورة حقيقية لنهضة الشرق فى القرن التاسع عشر ويقودنى التخيل الى تذكر عصر نهضة الاصلاح الدينى فى أوروبا إذ أن السبب واحد فى الحالتين وهو تحرير الفكر من تقاليد الماضى واطلاقه فى فضاء الحياة يبحث ويحقق . وقد عاصر الدكتور صروف فئة تشبه تمام الشبه الفئة التى وجدت فى أول عصر الاصلاح البروتستانتى حتى أن درسنا هذا العصر يقودنا الى معرفة أسرار النهضة السورية — المصرية الحديثة التى تنمو شيئاً فشيئاً بمساعدة رجالها المخلصين مقتحمة فى طريقها كل ما علق من سخافات وخرافات واباطيل الماضى التى لاتتفق والعقل أبداً .

كان منتصف القرن التاسع عشر وكان أن المرسلين الاميركان أتوا بيروت للتبشير بالمذهب البرتستانتى وأسسوا المدارس والكليات وثارت حولهم عاصفة جدال قوية

انتهت بقتل البعض ممن لاذوا بهم ومنهم المرحوم أسعد الشدياق الذى قتله بطريك الموارنة لاعتناقه المذهب البروتستانتى، وكان قتله سبباً فى اعتناق شقيقه فارس الاسلام ودعى احمد ، ففى هذه الإثناء خرج قسم من الشبان المتعلمين على مذهب آبائهم وأسسوا وحدة فكرية غايتها نشر المعرفة حبأفى تعميم المذهب الجديد منهم المعلمون بطرس البستانى وسليم كساب وأسعد الشدودى وابراهيم بطرس التبشرانى وداود هرارى اليهودى المتنصر ونوفل نوفل وميخائيل مشاقه وحنا ابكاريوس وشايعهم الشيخ ناصيف اليازجى وفرنسيس المراش والشيخ يوسف الأسير وغيرهم فكتبوا وألفوا فى مختلف فروع العلوم وأوجدوا بيئة جديدة ترعرع فيها — فيما بعد — جورجي زيدان ويعقوب صروف وبقية المشاهير الاحياء ممن لانرى واجبا لذكرهم هنا

ولما كان الدكتور كرنيليوس فان ديك رجل العلم والفضل وأكبر المرسلين الاميركان مقاماً بعد الدكتور بلس مؤسس الجامعة ، فسيساً فان من الطبيعى ان يغرس فى تلميذه — يعقوب صروف — حب الدين واحترامه ومن الطبيعى أن يقبل — يعقوب صروف — الشاب مبادىء أستاذه نظراً لصفاته الجذابة ومعارفه الواسعة وفضله العظيم ، فنشأ على حب استاذه واحترام ميوله وكان أن قبل الوعظ مهنة قبل أن يؤسس المقتطف مدفوعا برغبة شديدة ناتجة عن التلقين والاقتداء واقدر أن أقول انه لولا هذا لكان الدكتور صروف لاأدريا صميما يميل إلى الناحية التى يميل اليها كل من يدرس العلوم بدون أن ينزع الى الدين ويطبع ذاته على خدمة هدف اسما لاشعوري .

بيد أن اندفاعه وراء عاطفته الدينية لم يدم طويلا، لان العلم كان قد ابتدأ بمعارضة معتقده فكان أن تذكر تعاليم استاذه ومنها قوله — : ابحث عن علة كل شيء ومايخفى عليك فقل انه يرجع إلى الله — هذه الجملة السامية بمعناها والتى تدل على نزعة فان ديك العظيم وميول تلميذه الدكتور صروف — فهو لم يلحد عندما ظهر له بطلان مذهبه بل كيف معتقده حتى طابق حقائق العلم وما كان يمنعه عن التصريح بوحدة الكون سوى عدم ظهور العلة الأولى بوضوح فى وقته، انما لانقدر أن نقول انه كان يؤمن بالثواب والعقاب ولاهوت المسيح وصلبه وبقية الغيبيات لترجمته المواعظ وكتب اللاهوت، لان تصريحه باللاأدرية أكثر من مرة ونقله عن « باسكال » و « ديكارت » مايتعلق

بعدم معرفتنا النهاية يجعلنا نؤكد بعده عن تصديق هذه ، عدا ان حده العلمي كان أعلى من أن يدعه يتمسك بأوهام تناقض العقل تمام المناقضة .

فبعد أن تركزت شخصيته على هذا الأساس لم تعد قادرة على مجاراة النظريات الحديثة في العلم والفلسفة وأخصها نظرية « آينشتين » في وحدة الكون الرياضية ونظرية « برغسون » في وحدة المشاعر والعقل ، لان الوقت الذي فيه تؤسس الشخصية كان قد مضى ومن وراء منظار تأسيس الشخصية يرى الناس الأشياء ويتحققونها ، فاللغوي يقرأ الكتاب من وراء منظار اللغة فينتبه للصرف وللنحو أكثر مما ينتبه للمعاني ، والعالم ينظر من وراء منظار الحد الذي بلغه في العلم إلى النظريات الجديدة ، وهكذا الفيلسوف . فكأن الانسان ليس حراً في مقدرة المعرفة لأن هذه المقدرة ترجع الى تأسيس الشخصية ، وهذه لها وقت محدود هو أيام الشباب فقط . إلا أن هذا لا يقلل شيئاً من قيمة الدكتور يعقوب صروف العلمية لانه الرجل الوحيد في الشرق الذي رفع منار حرية الفكر على قاعدة العلم والفلسفة ، وقد تكون سعداء كل السعادة لو يبلغ شبان هذا العصر ربع مابلغه في شبابه مع فرق النسبة بين تلك الأيام وهذه وما استجد في أثناء هذا الفرق من النظريات .

واذا أردنا أن نقيس عظمة الانسان الفكرية بنسبة نفعه للناس نفعاً مجرداً فيكون الدكتور صروف وحيداً في عظمته ، وهذه العظمة لا ترجع للعلم وحده ولا للفلسفة وحدها ، بل للنشأة الدينية التي نشأها والتي طبعته بطابع قد لا نراه في غيره الى أبد الدهر لان الوداعة التي تأصل في النفس من جراء التعاليم الدينية السامية الممزوجة بالعلم وانتقالها الى الناس بالاقتداء والمحاكاة لا يمكن أن تعاود الظهور حتى في نفوس البروتستانت أنفسهم الذين ضربوا بالغايات الشريفة التي كرسوا حياتهم من أجلها عرض الحائط وصار الذي يدرس عليهم ويعاشرهم يهرب منهم هربه من صل يترصد الفرص للفتك به

أني لا أملك نفسي من أذراف دمعة على فقد الدكتور صروف رجل العلم والفلسفة والدين — الدين العقلي الذي ترك فراغاً في الشرق لا يمكن ان يسده غيره مادام الانسان ودام الكون !

بيروت — ابراهيم حداد